

الطوفان

بين الحقيقة والأسطورة

إعداد: محمد فيض الله الحامدي*

فلا مجلس أنس جمع شلة من الأصحاب ، احتد النقاش حول طوفان نوح ، هل كان الطوفان عاماً على كامل الكرة الأرضية ؟ أم حادث في موقع جغرافي محدد كبلاد ما بين النهرين ؟ وهل البشرية الحالية هي من سلالة نوح فقط ؟ وهل حمل نوح معه كل الأنواع الحيوانية التي تتنفس الهواء وهي آلاف الأنواع ؟ وأين رست سفينة نوح ؟ على الجودي أم على أرارات ؟ وهل حمل نوح زوجته في السفينة ؟

وأسهمت في النقاش بقدر اطلاعي على هذا الموضوع ، وكان رأيي أن الطوفان حدث في زمن ما وفي مكان معين ، وترك أثراً كبيراً في وجدان الناجين، وتناقلت ذاكرة الأجيال هذا الحدث ، بصيغ مختلفة فكانت أساطير الطوفان ، وجاءت الكتب المقدسة لتؤكد حقيقة الطوفان ، ففصلت التوراة قصة الطوفان وأجمل القرآن .

وفي هذا البحث سأتناول الطوفان في الروايات الأسطورية ، ثم رواية التوراة ، وقصة الطوفان في القرآن الكريم . ثم الدلائل التاريخية والجيولوجية على حدوثه ، مع التعليق المناسب في المكان المناسب .

□ أساطير الطوفان :

أساطير الطوفان منتشرة في جميع أنحاء العالم، عند الشعوب المتحضرة والبدائية ، وقد كشفت الحفريات التي تمت في منطقة بلاد ما بين النهرين، عن ألواح ورقم دوّنت عليها ملاحم أدبية تتحدث عن الخليفة وفي سياقها ترد حادثة الطوفان، فهذه الملاحم السومرية والملحمة الأكادية (البابلية) وفي تراث الهند الثقافي ملحمة ورد فيها عن الطوفان ما يشبه الى حد ما ملاحم بلاد الرافدين

(*) كاتب وباحث ومحقق .

والأسطورة اليونانية عن الطوفان مقتبسة من بلاد ما بين النهرين مع تعديل بسيط . وتبدو رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية الطوفان في الأساطير السومرية والبابلية . أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان ولم يحدد من كان مع نوح ، ولكن أكد على حقيقة الطوفان . ونبدأ بالأسطورة السومرية .

أولاً - النص السومري عن الطوفان :

« السومريون شعب سكن في بلاد ما بين النهرين في الألف الرابع قبل الميلاد ، ويعتقد العلماء أن هذا الشعب قدم الى هذه البلاد من مرتفعات فارس أو المنطقة الواقعة وراء الخليج العربي »^(١) ولدى التنقيب في خرائب مدينة (نقر) السومرية عام ١٩١٤ م عثر العالم آرنو بوبل Arno Bobel على مجموعة ألواح تعود للألف الثالث قبل الميلاد ، دوّن عليها نص عن الطوفان يتشابه مع رواية التوراة عن الطوفان ، فترك ذلك الاكتشاف صدًى واسعاً في الأوساط العلمية ، والنص فيه تشوهات ، ولكن المقروء منه ، ملخصه أن الآلهة قررت افناء البشر بالطوفان ، وبعض الآلهة كان معارضاً لهذا القرار ، وأحدهم أخذ على عاتقه مهمة انقاذ بذرة الحياة على الأرض ، وكان على الأرض ملك صالح يدعى « زيو سودرا » فيتصل به الاله المنقذ من وراء حجاب فيخبره بقرار الافناء ، وفيما يلي مقاطع من الأسطورة^(٢) : « في ذلك الحين يكت « ننتو » كامرأة في المخاض . وأنانا المقدسة ناحت على شعبها . وانكي تفكّر ملياً وقلب الأمر على وجوه ٠٠٠ في تلك الأيام « زيو سودرا » كان ملكاً وقيماً على المعبد . قام بتقديم ذبيحة عظيمة جداً ، وجعل يسجد بخضوع ٠٠٠ بتبجيل . وباصرار كل يوم كان يقف منتظراً وحي الآلهة . فرأى في أحد الأيام حلماً لم ير له مثيلاً قط . يتشوه النص والمقاطع التالية تقول : « زيو سودرا واقفاً بجانبه (أي الجدار) يسمع صوتاً . قف قرب الجدار على يساري واسمع ، سأوجه لك بكلمة عند الجدار فاتبع ما أقوله لك وأعط أذنًا صاغية لوصاياي ، بأيدينا سنرسل طوفاناً من المطر ٠٠٠ للقضاء على بني الانسان ٠٠٠ ذلك حكم وقضاء مجمع الآلهة . قضاء (أنو) و (انليل) . لمحو سلطة البشر والقضاء على حكمهم » .

يتشوه النص ، تليه مقاطع واضحة عن حوادث الجو التي أدت الى الطوفان : « هبت كل العواصف دفعة واحدة . ودفعت سيول الأمطار أمامها ٠٠٠ ، بعد سبعة أيام وسبعة ليال ، غمرت سيول الأمطار وجه الأرض ، ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة . ثم ظهر « أوتو » - أي إله الشمس - ناشراً ضوءه على السماء والأرض . فتح زيو سودرا كوة في المركب الكبير وسمح لأشعة البطل « أوتو » بالدخول اليه . زيو سودرا الملك خرب ساجداً أمام أوتو ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم » . يتشوه النص ولكن تنتهي القصة بـ « زيو سودرا الملك سجد أمام أنو وانليل . ومثل إله وهباه حياة أبدية ، ومثل أله وهباه حياة خالدة ، عند ذلك زيو سودرا الملك دعى حافظ بذرة الحياة ، وفي أرض ٠٠٠ دلون حيث تشرق الشمس أسكنه » . ومن هذا النص السومري نسجل الملاحظات التالية :

١ - إيمان الشعب السومري بتعدد الآلهة ، وقرار الطوفان يصدر من مجمع الآلهة لتدمير البشر والحياة على الأرض .

- ٢ - صاحب السفينة هو زيو سودرا وهو ملك رقيّم على المعبد ، فهو رجل صالح ، يخبره أحد الآلهة بقرار الطوفان ، ويأمره ببناء السفينة (المركب العملاق) • لينجو بنفسه •
- ٣ - حدوث الطوفان بعواصف جوية ، وأمطار غزيرة دامت سبعة أيام بلياليها، ونجاة زيو سودرا •
- ٤ - لم تحدد الأسطورة مكان استواء المركب العملاق ، ولكن يفهم أنه في أرض دلون حيث تشرق الشمس •
- ٥ - يفهم من النص المكتشف أن الطوفان عام ، لأنه دمر الحياة على الأرض ، وزيو سودرا أنقذ بذرة الحياة • ولكن مدة العواصف والأمطار غير كافية لتشكيل طوفان يعم كامل الأرض •
- ٦ - لم يكلف زيو سودرا بتبليغ قومه قرار الآلهة ، ولم يكن رسولاً ، ولكن كان صالحاً متعبداً فاخترته الآلهة لصالحه ، لينقذ بذرة الحياة، وينجو من الغرق •

ثانياً ، النص البابلي عن الطوفان : (ملحمة جلجامش) :

« في عام ١٨٧٢ أعلن الباحث الانكليزي جورج سميث أنه قد توصل لحل رموز أحد ألواح مكتبة الملك الآشوري « آشور بانيبال » في نينوى، الذي حكم في القرن السابع قبل الميلاد وأن هذا اللوح يحتوي على نص للطوفان • فتتبع البعثات التنقيبية على المنطقة لاكتشاف المزيد • الى أن تم العثور على الألواح الاثني عشر التي تشكل ملحمة جلجامش التي تأخذ قصة الطوفان معظم اللوح الحادي عشر منها » (٣) •

ومن غير الدخول في تفاصيل ملحمة جلجامش Gelgamish ، يفقد جلجامش صديقه (انكي دو) فيحزن عليه ، ويريد إعادة الحياة له ، فيهم على وجهه في البراري والقفار باحثاً عن سر الخلود ، ويقصد جلجامش شخصاً يدعى « أوت-نابشتيم » — Ut Napishtim الذي منّت عليه الآلهة بالحياة السرمدية ، ليسأله عن سر الخلود • ويصل جلجامش اليه بصعوبة ويسأله عن سر الخلود ، فيقص عليه (أوت-نابشتيم) كيف حصل على الحياة الأبدية بحدث فريد هو الطوفان الكبير وفيما يلي مقاطع من الأسطورة (٤) : يسأل 'جلجامش' أوت-نابشتيم « أخبرني كيف حصلت على رفقة الآلهة ونلت الخلود ؟ فقال أوت-نابشتيم لجلجامش : جلجامش... ساكشف لك سرّاً كان مخبوءاً ، وأبوح لك بسر من أسرار الآلهة • « شوريباك » مدينة أنت تعرفها ، تقع على شاطئ نهر الفرات • لقد شاخت المدينة والآلهة في وسطها، فحدثهم نفوسهم أن يرسلوا طوفاناً • كان هناك « أنو » أبوهم ، كما كان « انليل » مستشارهم و « نورتا » مثلهم و « اينوجي » وزيرهم ، و « نجيكو » الذي هو « ايا » كان حاضراً أيضاً ، فنقل حديثهم الى كوخ القصب - (بيت أوت-نابشتيم) - ياكوخ القصب ياكوخ القصب ، جدار ياجدار ، اصغ ياكوخ القصب ، وتفكر ياجدار ، رجل شوريبك ، يا ابن أوبارا-توتو • قوَض بيتك وابن سفينة • اهرممتلكاتك وانج بنفسك • اترك متاعك وأنقذ حياتك • اعمل على حمل بذرة كل ذي حياة • والسفينة التي أنت يانيها ، ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة • فيكون عرضها معادلاً لطولها ، وعطها كما هي المياه السفلى • عندما فهمت ذلك قلت لـ « إيا » مولاي : سأضع نصب عيني ما قد أمرتني به وأعمل على تنفيذه •

ويتابع أوت-نابشتيم حديثه لجلجامش ، الى أن يقول : « وفي اليوم الخامس أنهيت هيكل السفينة ، كنت أرضيتها « ايكو » واحد - (مقياس يعادل ٣٦٠٠ م^٢) - وارتفاع جدرانها مائة وعشرين ذراعاً ، وطول كل جانب من جوانب سطحها مائة وعشرين ذراعاً ، حددت شكلها الخارجي وشكلته ، وستة سطوح سفلية بنيت فيها ، وبذلك قسمتها السبعة طوابق . كما قمت بتقسيم أرضيتها لتسعة أقسام ، وثبت على جوانبها مصدرات الماء . زودتها بالمؤمن والذخيرة « ويتابع أوت نابشتيم حديثه حتى يصل الى « حملت اليها كل ما أملكه . كل ما أملكه من فضة ، حملت اليها . كل ما أملكه من ذهب حملت اليها . كل ما لدي من بذور كل شيء حي حملت اليها . وبعد أن أدخلت اليها أهلي وأقاربي جميعاً ، وطرائد البرية ووحوشها وكل أصحاب الحرف ، عين لي «الاله « شمش » وقتاً محدداً : (عندما يرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء أدخل الفلك وأغلق عليك بابك) . وما إن أزف الموعد ، حتى أرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء . قلبت وجهي في السماء كان الجو مرعباً للنظر ، دخلت السفينة وأغلقت عليّ بابي ، وأسلمت قيادها للملاح « بوزور-أموري » أسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه . وما إن لاحظت تباشير الصباح ، حتى علت الأفق غيمة كبيرة سوداء ، يجلجل في وسطها صوت « حدد » - ويسبقها « شوللات » و « خانيش » - اقتلع « أريجال » الدعائم وقام « نورتا » بفتح السدود . رفع (الأنوناكي) مشاعلهم ، حتى أضاعت الأرض ببريقها . الا أن ثورة حدد بلغت حدود السماء ، أحالت الى ظلمة ما كان مضيئاً ، وقام بتعطيم الأرض كما تحطم الجرة ، عصفت الرياح العاتية يوماً كاملاً ، بعنف عصفت . . . أتت على الناس وحصدتهم كما الحرب ، حتى عمي الأخ عن أخيه ، وبات أهل السماء لا يرون أهل الأرض ، حتى الآلهة ذعروا من هذا الطوفان ، وهربوا صاعدين الى سماء « أنو » . انكمشوا كالكلاب الخائفة ورضوا في أسي .

صرخت « عشتار » كأمراة في المخاض ، ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب : (لقد آلت الى طين تلك الأيام القديمة ، ذاك بأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة ، فكيف استطعت أن أمر بمثل هذا الشر ؟ كيف استطعت أن أمر بالحرب لتدمير شعبي ؟ تدمير من أعطيتهم أنا الميلاد . وما هم يملأون اليوم كصغار السمك) . وبكى معها آلهة الأنوناكي ، وجلسوا يندبون وينوحون وقد غطوا أفواههم .

سنة أيام وستة ليال ، والرياح تهب ، والعاصفة وسيول المطر تغطي على الأرض ، ومع حلول اليوم السابع ، العاصفة والطوفان خفت من وطأتها ، وكانت قبل كأنها الجيوش المحاربة ، وأخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن . والطوفان يتوقف ، فتحت نافذة فوق النور على وجهي ، نظرت الى البحر كان الهدوء شاملاً ، وقد عاد البشر الى طين .

ويتابع أوت-نابشتيم حديثه لجلجامش : « واستقرت السفينة على جبل (نصير) ، أمسك الجبل بالسفينة ومنعها من الحركة . ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسكاً بالسفينة . ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة . ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسكاً بالسفينة . وعندما حلّ اليوم السابع ، أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء . طارت الحمامة بعيداً ، وما لبثت أن عادت اليّ ، لم تجد مستقراً فأبت . فأتيت بسننونا وأطلقتها في السماء ، طار بعيداً

ثم أتيت بغراب وأطلقت في السماء ، فطار الغراب وما لبث أن عاد اليّ . لم يجد موطناً لتقديمه فأب . بعيداً ، ولما رأى أن الماء قد انحسر ، أكل وحام وحط ولم يعد . عند ذلك أطلقتُ الجميع للجهات الأربع ، وقدمت أضحية « ويتابع أوت-نابشتيم حديثه ، فيبين ما فعله على قمة الجبل من أضحية وتجمع الآلهة ، والحوار الذي دار بين الآلهة حول الطوفان ونتائجه ، ويخلص الى القول : « فصعد انليل الى السفينة وأخذ بيدي وأصعدني معه . كما أصعد زوجتي أيضاً ، وجعلها تركع الى جوارى ، ثم وقف بيننا ولمس جبهتنا مباركاً : « ما كنت يا أوت-نابشتيم الا بشراً فنياً ، ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا (خالدين) وفي القاصي البعيد عند فم الأنهار ستعيشان » ثم أخذوني وأسكنوني في البعيد حيث فم الأنهار » .

يعتبر هذا النص أهم نصوص الطوفان في بلاد الرافدين ، لأنه كامل ، ولدقة تفاصيله وحسن صياغته ، وقد اجتزأت بعض الفقرات من النص ، فمن أراد الاطلاع على النص الكامل يمكن العودة الى المرجع المحدد بالهامش .

والملاحظات التي نسجلها من قراءة النص البابلي للطوفان في ملحمة جلجامش هي :

١ - إيمان الشعب البابلي بتعدد الآلهة ، كالشعب السومري ، وقرار الطوفان يتخذه مجموعة من الآلهة ، لتدمير شوريباك على نهر الفرات ، ولكن ورود مقطع يبين دعر الآلهة أو بعضها وانكماشهم كالكلاب الخائفة ، يشير الى نظرة الببليين الى مكانة الآلهة وقداستهم فحدث الطوفان جلب النقمة حتى على الآلهة .

٢ - صاحب السفينة هو أوت-نابشتيم - ويخبره « ايا » أن يصنع سفينة بمواصفات معينة ، فيعمل هذا الرجل اليها كل ما يملك من ذهب وفضة وبذور كل شيء حي ، ثم يدخل هو وأهله وأقاربه وأصحاب الحرف وطرائد البرية والوحوش ، ويطلقهم في الجهات الأربع بعد الطوفان فكان الحياة على الأرض ابتداءً من جديد بعد الطوفان .

٣ - حدوث الطوفان بعواصف رعدية مرعبة ، وتفجر الأرض بالينابيع عندما قام حدد بتعظيم الأرض كما تعظم الجرّة . ودامت العواصف ستة أيام بلياليها ، وهذات في اليوم السابع .

٤ - مكان الطوفان هو بلاد ما بين النهرين « شوريباك التي تقع على الفرات » وتستقر السفينة على جبل نصير (يقع بين الفرات والزاب الصغير) ، وتبقى السفينة ستة أيام على قمة الجبل قبل أن يطلق أوت نابشتيم الحامة ثم السنونو ثم الغراب ليستطلع ، هل حدث انحسار الماء . وهذا يفيد أن الطوفان لم يكن عاماً ، فجبل نصير منخفض بالنسبة لجبال أخرى كثيرة في المنطقة .

٥ - لم يكن أوت-نابشتيم ملكاً أو رسولاً الى قومه ، ويبدو أنه كان فقيراً لأنه يعيش في كوخ القصب ، والذين نجو معه في السفينة هم أهله وأقرباؤه وأصحاب الحرف ، وهذا يوحي بنجاة عدد كبير من الناس معه ، ولكن نيل الخلود كان من نصيب أوت-نابشتيم وزوجته . وفي النص اشارة الى انتقال أوت-نابشتيم باتجاه الشمال حيث فم الأنهار (أي منابع الأنهار ، فالمناطق المرتفعة أكثر أماناً من الأماكن المنخفضة عند حدوث الفيضانات .

ونشير هنا الى أن بعض أساطير أخرى عن الطوفان وجدت مدونة على ألواح ، تم اكتشافها في بلاد ما بين النهرين تعود للعهد البابلية الكلدانية . ولكن أغلبها مشوه أو كسرات غير كاملة ، فقد عثر على كسرة من لوح في خرائب مدينة « نيبور » والمدون عليها جزء من قصة الطوفان « سأقوم بأفلات وتحرير ... سوف يأخذ الناس أجمعين ... قبل أن يحل الطوفان ... سأسبب الخراب والدمار والفناء ... قم ببناء سفينة كبيرة ... سيكون هيكلها سفينة عظيمة ستكون ، وسيكون اسمها حافظة الحياة ... قم بتغطيتها بغطاء متين والى السفينة التي صنعت وجلب وحوش البر وطيور السماء » (٥) .

الفكرة التي دونت على الكرة رغم نقصها ، تشير الى طوفان قادم ، وشخص يؤمر ببناء سفينة للحفاظ على الحياة ، يحمل الوحوش وطيور السماء ، والنص يؤكد انتشار أسطورة الطوفان في المنطقة .

وثمة ملحمة أخرى بنص بابلي وصلتنا موزعة على كسرات عديدة ، بطلها « أتراحيس » فعرفت باسم ملحمة أتراحيس ، وهي تتحدث عن غضب (أنليل) على البشر بسبب تكاثرهم وضجيجهم الذي منعه من النوم ، فيأمر (أنليل) بقلع الأشجار ويطلب من حدد حجب المطر ومن (نيساب) حجب صدرها الخصب والهدف هو تعريض البشر للخطر وفي الملحمة مصائب أخرى سلطها أنليل على البشر كالأمرض والأوبئة ، وفي الملحمة جزء خاص بالطوفان « ففتح أنكي فمه وقل مخاطباً أنليل لماذا أمرت ...؟ سأمد يد المساعدة الى البشر ... والطوفان الذي قد أمرت به ... » يتشوه النص ، وفي كسرة أخرى « وفي الوقت المحدد الذي ساعينه لك ، أدخل الفلك وأغلق عليك بابك ، أحمل اليها الجبوب والمتاع والمواشي ، زوجك وعائلتك وأقرباءك وأصحاب الحرف ، طرائد البرية ووحوشها ، وما استطعت من أكلة الأعشاب ، سأدفع بها اليك ، وتقع عند أبوابك تحرسها لك . ففتح أتراحيس فمه وقال محدثاً « إيا » مولاه : لم يسبق لي أن بنيت سفينة ، فهلا رسمت لي شكلاً لها على الأرض أستعين به على بنائها ...؟ ثم اني سأعمل على تنفيذ ما أمرتني به » (٦) .

ان ما وصلنا من ملحمة أتراحيس بخصوص الطوفان ، يتشابه مع ملحمة جلجامش في بعض النقاط ، كحمل الجبوب والمتاع والمواشي ، ثم الأهل والأقرباء وأصحاب الحرف ، وصناعة السفينة بوحي من « إيا » ، ولكن بطل الأسطورة في ملحمة جلجامش الذي هو أوت-نابشتيم يصبح أتراحيس ، ومعنى أوت-نابشتيم «الذي رأى الحياة » أما معنى (أتراحيس) فهو « الواسع الحكمة » . وسنرى أن أسماء الآلهة وبطل الطوفان والمواقع تتغير عندما نقلت أسطورة الطوفان الى الآداب اليونانية ، كما يظهر في نص بيروسوس ، والأسطورة اليونانية عن الطوفان .

□ نص بيروسوس (٧) :

بيروسوس كاهن مردوخ في بابل ، في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، دون تاريخ بابل بالاعتماد على الوثائق المدونة على الألواح ، ونقلها الى اليونانية عام (٢٧٥) قبل الميلاد ، فضاء معظمها ، ولكن ما يتعلق بالطوفان ، ظهرت في أعمال الكاتب ألكسند بوليستر في القرن الأول

قبل الميلاد ، اقتبسها من رواية بيروسوس عن الطوفان ، وملخص الرواية « أن الملك اكسوثروس » بن « أرديتس » رأى حلمًا ، تجلى له فيه الإله « كرونوس » فيخبره الإله بأهلاك الحياة على الأرض بطوفان مدمر ، فيأمره بكتابة ألواح عن بداية كل شيء وتطوره ونهايته ، وطمر هذه الألواح في (سيبارا) مدينة إله الشمس . كما يأمره ببناء سفينة ، لتحمله مع عائلته وأقربائه ، ويحمل فيها من كل ما يطير ويدب على الأرض ، ويبني الملك سفينة طولها خمسة (استاديا) وعرضها اثنتا (استاديا) ، وحمل فيها وفق المشيئة الإلهية ثم صعد مع زوجته وأولاده المقربين إليه .

ويحدث الطوفان ، وبعد هدوئه يرسل اكسوثروس الطيور مرتين ، وتعود لعدم انحسار الماء ، ثم يرسل ثلاثة فلا تعود الطيور ، فيعرف اكسوثروس أن الأرض انكشفت . واستوت السفينة على أحد الجبال . وينزل الملك وزوجته وملاح السفينة على الأرض ، فسجد الملك وبنى مذبحًا ، وقدم قربانًا للآلهة . بعد ذلك نزل الذين كانوا في السفينة للبحث عن اكسوثروس لأنه تأخر عليهم ، فلم يجدوه ، فاتاهم صوت من السماء يأمرهم بالتقوى والصلاح ، ويخبرهم أن اكسيوثروس رفع إلى السماء إلى الآلهة ، ليعيش معهم عيشة خالدة ، بسبب تقواه وصلاحه . كما أخبرهم الصوت أن مكان استواء السفينة هو إحدى بقاع أرمينيا وعليهم أن يعودوا إلى بابل ليستعيدوا الألواح المطمورة في سيبارا ، وعندما سمع القوم ما قاله لهم الصوت السماوي ، قدموا الأضاحي للآلهة ، ومضوا إلى بابل ، فاسترجعوا الألواح ، وبنوا المدينة من جديد ، وأشادوا مدناً كثيرة وأقاموا المعابد والهيكل .

والملاحظات على نص بيروسوس : أنه غير اسم الإله « ايا » إلى اسم إله يوناني وهو « كرونوس » وبطل الطوفان هو ملك مثل زيوسودرا ولكن اسمه يوناني اكسوثروس ، والنص ابتعد عن التفاصيل التي تتعلق بحالة الجو ، فأعطى واقعية أكثر للرواية ويتركز اهتمام القارئ على الهدف من الطوفان والنتائج . واختفاء اكسوثروس ورفعته إلى السماء ، فكرة متقدمة في مجال العقيدة الدينية ، فالمروج إلى السماء وارد في الأديان السماوية ، كما أن سماع القوم نداءً من السماء دون رؤية الآلهة ومخاطبتهم مباشرة ، فيه تنزيه للآلهة من التجسد ، والنص يشير إلى مكان استواء السفينة (أرمينيا) التي يقع فيها جبل آرارات حالياً .

ثالثاً - الأسطورة اليونانية عن الطوفان (٨) :

يرجح معظم العلماء أن الأسطورة اليونانية مقتبسة من أساطير الطوفان في بلاد ما بين النهرين وقد ذكرها « هسيود » الشاعر اليوناني الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد . في ملحمة شعرية . وملخص الرواية أن « زيوس » — Zeus — كبير الآلهة غضب على البشر لزياد شرورهم وعصيانهم الدائم وذلك يشكل خطراً دائماً يهدد الآلهة ، فقرر إبادتهم بالطوفان ، وقد أخبر زيوس « بروميس » بقرار الطوفان رغم ما بينهما من عداوة فقد كان زيوس يخشى سطوة بروميسوس لتعاطفه مع البشر . فأخبر بروميسوس ابنه دوكاليون Deucalion وكان هذا ملكاً صالحاً ، أمه حورية البحر « كليمينه » وكان متزوجاً من (بيررا) Pyrrha بنت ايبينيثيوس وباندورا ، وقد حكم دوكاليون تساليا بالعدل وطلب بروميسوس من ابنه أن يصنع سفينة لينجو بنفسه مع زوجته (بيررا) . فصنعها ، وفي اليوم الموعد انفتحت أبواب السماء بالمطر الغزير ، فغطت المياه وجه الأرض ، وأهلك

الصغير والكبير ، ودام الطوفان تسعة أيام بلياليها، وبقي الفلك عائماً على وجه الماء وعلى متنه دوكاليون وزوجته فقط ، وفي اليوم العاشر ، حطت السفينة على جبل (البرناس) Parnasse . فخرج دوكاليون وزوجته من الفلك وقدم ذبيحة لأبي الآلهة (زيوس) فدخلت الرحمة في قلبه ، وتنسم رائحة الضحية بانشرائح ، ورضي على مقدمها ، فأرسل زيوس رسوله (هرمس) ليسألها عن أمنيتهما ، فأجابا بأنهما يتمنيان عودة الجنس البشري ، ايناساً لوحشتها ، فأمرهما أن يلقيا عظام جدتهما ، وبعد تفكير أدرك دوكاليون أن عظام جدتهما ليست سوى حجارة الأرض التي هي جدتهما « ليا » فنفاذا الأمر ، فكان الذكور من الحجارة التي يلقيها دوكاليون خلفه ، والاناث من الحجارة التي تلقيها « بيرا » خلفها ، فنشأت البشرية من جديد من أناس أكثر صلابة وشجاعة .

ونسجل على هذه الأسطورة الملاحظات التالية :

- ١ - قرار الطوفان يتخذ زيوس كبير الآلهة ، فما زالت فكرة تعدد الآلهة موجودة ، وسبب الطوفان هو شرور البشر وعصيانهم .
- ٢ - صاحب السفينة دوكاليون هو ملك عادل وابن لبروميثوس (النبي) الذي كان متعاطفاً مع البشر ، فهو مثل زيوسودرا الملك ، ومثل نوح في التوراة من سلالة نبي .
- ٣ - مكان هبوط السفينة ، أرض اليونان - جبل البرناس وارتفاعه حالياً (٢٤٥٩) م . والطوفان أهلك كل البشرية بدون استثناء ، ما عدا دوكاليون وزوجته .
- ٤ - البشرية الحالية خلق جديد من حجارة الأرض ، وهذه الفكرة تربط بين الإنسان وأصله من تراب .

رابعاً : الأسطورة الهندية عن الطوفان (٩) :

« تقول الأسطورة : ان « مانو » وهو ابن الله كان يغسل يديه ، فجاءت في يده سمكة صغيرة ، وكلمته السمكة ، وطلبت منه أن ينقذها من الهلاك، ووعدته جزاءً عليه أن تنقذه في المستقبل من خطر عظيم ، وهو طوفان عارم سيجرف جميع المخلوقات، فحفظ مانو السمكة في وعاء ولما كبرت السمكة أخبرت مانو عن السنة التي سيحدث فيها الطوفان، وأشارت عليه أن يصنع سفينة كبيرة ، ويدخل فيها عند طغيان الماء ، وصنع مانو السفينة وكبرت السمكة فآلقاها في البحر، وحدث الطوفان، وعندما دخل مانو السفينة ، عامت اليه السمكة ، فربط السفينة بقرن على رأسها ، فسحبها الى الجبال الشمالية ، وربط مانو السفينة بشجرة ، وعندما تراجع الماء وخف بقي مانو وحيداً .

وانهمك مانو في العبادة ، وكان يتمنى أن يخلف في الأرض ، فقدم ضحية ، وبعد سنة خلفت الضحية امرأة ، فأخبرت المرأة مانو أنها ابنته لأنها خلقت من ضحيته وقالت : أنا بركة استعملني في القربان تصبح غنياً في الأخلاف والمواشي ، واستمر مانو في العبادة والمجاهدة مع المرأة ، فانتجا هذه الذرية ، فهي ذرية مانو ، وأي نعمة طلبها مانو بواسطتها أعطيت له . والملاحظات على الأسطورة الهندية ، أنها تتشابه في بعض عناصرها مع أساطير بلاد الرافدين، كحدوث طوفان عارم مدمر لكل مظاهر الحياة والبشر ، ثم بناء سفينة كبيرة من قبل شخص يعلم مسبقاً بحدوث

الطوفان ، واستواء السفينة فوق جبل مرتفع ، والبشر الحاليين من سلالة ذلك الشخص الناجي وهو رجل عابد صالح تقي .

لكنها تختلف عن أساطير بلاد الرافدين بثلاثة نقاط وهي :

- ١ - السمكة تخبر مانو بالطوفان ، (حوار بين انسان وحيوان) ، وفي سياق الأسطورة لا توجد غرابة من هذا الحوار ولكن تدل على مرحلة بدائية في العقيدة الدينية .
- ٢ - كان الطوفان عارماً ، والسمكة جرت السفينة نحو الشمال ، (خيال بدائي) وربط مانو السفينة بشجرة ، وهذا يدل أن الماء لم يغط كل القمم . ولكنه أباد البشرية بكاملها .
- ٣ - خلق المرأة من ضحية مانو ، ثم تناسل البشرية منهما ، عودة الى قصة خلق الانسان الاول (التي تشبه قصة آدم الى حد ما) بينما في أساطير بلاد الرافدين كان الناجي يحمل زوجته واهله في السفينة .

وهذا الاختلاف ، يوحي بعدم وجود ارتباط بين هذه الأسطورة وأساطير الطوفان الأخرى ، ولكن فكرة الطوفان قد تكون عامة ، لأن ظاهرة الطوفان تحدث في أمكنة مختلفة فتسبب كوارث ، وسبيل النجاة هو صناعة السفينة والتوجه نحو الجبال .

□ الطوفان في التوراة (١٠) :

روت التوراة في سفر التكوين في الاصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان ، فأسهت في سرد الأحداث ، وبينت الأسباب والنتائج ، ورواية التوراة فيها عناصر مشابهة للعناصر الموجودة في أساطير بلاد ما بين النهرين ، وتختلف عنها في جوانب أخرى ، وقد أثرت هذه الرواية في كافة أتباع الأديان الثلاثة : الموسوية والمسيحية ، والاسلام ، لذلك سأنقل هنا النص الكامل للاصحاحات الثلاثة ، مع التعليق المناسب .

□ الاصحاح السادس :

- ١ - ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات .
- ٢ - رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهن نساء من جميع من اختاروا .
- ٣ - فقال الرب لا تحل روحي على الانسان أبداً لأنه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة .
- ٤ - وكان على الأرض جبابرة في تلك الأيام وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر .
- ٥ - ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض ، وكان كل تصور وأفكار قلوبهم انما هو شر في جميع الأيام .
- ٦ - فندم الرب أنه عمل الانسان على الأرض وتأسف من قلبه .

٧ - فقال الرب أمحو الانسان الذي خلقت عن وجه الأرض ، الانسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأنني ندمت على خلقي لهم .

٨ - أما نوح فنال حظوة في عيني الرب .

٩ - وهؤلاء مواليد نوح . كان نوح رجلاً براً كاملاً في أجياله وسلك نوح مع الله .

١٠ - وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافثاً .

١١ - وفسدت الأرض أمام الله وملئت جوراً .

١٢ - ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت لأن كل جسد قد أفسد طريقه عليها .

١٣ - فقال الله لنوح قد دنا أجل كل بشر بين يدي ، فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهامنداً مهلكهم مع الأرض .

١٤ - اصنع لك تابوتاً من خشب قطراني ، واجعله مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقار .

١٥ - كذا تصنعه ثلاث مائة ذراع طوله ، وخمسون ذراعاً عرضه وثلاثون ذراعاً سمكه .

١٦ - وتجعل طاقاً للتابوت والى حد ذراع تكمله من فوق ، واجعل باب التابوت في جانبه ومساكن سفلى وثنائي وثنالث تصنعه .

١٧ - وهامنداً أت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء ، وكل ما في الأرض يهلك .

١٨ - وأقيم عهدي معك فتدخل التابوت أنت وبنوك وامراتك ونسوة بنيك معك .

١٩ - ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين ، من كل تدخل التابوت لتحيي معك ذكراً وأنثى تكون .

٢٠ - من الطير بأصنافها ومن البهائم بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل اليك اثنان من كل لتحيي .

٢١ - وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه اليك فيكون لك ولهم مأكلاً .

٢٢ - فعمل نوح بحسب كل ما أمره الله به هكذا فعل .

في هذا الاصحاح يمكن تحديد النقاط الأساسية التالية :

١ - ازدياد شرور الناس على الأرض ، وندم الرب على خلقه لهم فقرر محو البشر والبهائم والطيور والدبابات بطوفان مياه .

٢ - نوح رجل صالح نال حظوة في عيني الرب ، فيخبره الله أن يصنع تابوتاً (سفينة) ويحدد له مقاساتها ، الطول والعرض والعمق (السمك) وطوابقها (مساكنها) أي حدد الله لنوح حجمها الاجمالي . وصنعها نوح كما أمره الله .

٣ - حدد الله لنوح من يدخل معه ، الزوجة والأولاد الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فركاب السفينة من البشر ثمانية فقط حسب رواية التوراة .

٤ - أمر الله نوحاً أن يدخل من كل ذي روح اثنين ذكراً وأنثى ، وطلب منه تزويد السفينة بالمؤونة (الطعام) له والأحياء التي سيجعلها في السفينة .

□ الاصحاح السابع :

١ - وقال الله لنوح أدخل التابوت أنت وأهلك فاني اياك رايت باراً أمامي في هذا الجيل .

٢ - وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً ، ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وأنثى .

٣ - وخذ أيضاً من طير السماء سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً ليحيي نسلها على وجه كل الأرض .

٤ - فأنني بعد سبعة أيام مطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وماح كل قائم مما صنعت على وجه الأرض .

٥ - فعمل نوح بحسب كل ما أمره الرب به .

٦ - وكان نوح ابن ست مائة سنة حين كان ماء الطوفان على الأرض .

٧ - ودخل نوح التابوت هو وبنوه ونسوة بنيه معه من ماء الطوفان .

٨ - ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطير وجميع ما يدب على الأرض .

٩ - دخل التابوت اثنان اثنان الى نوح ذكوراً وإناثاً كما أمر الله نوحاً .

١٠ - وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض .

١١ - في السنة الست مئة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه ، في ذلك اليوم تفجرت عيون القمر العظيم وتفتحت كوى السماء .

١٢ - وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة .

١٣ - في ذلك اليوم نفسه دخل نوح التابوت هو وسام وحام ويافث وبنوه وامرأة نوح وثلاث نسوة بنيه معهم .

١٤ - هم وجميع الوحوش بأصنافها ، وجميع البهائم بأصنافها من كل طائر وكل ذي جناح .

١٥ - ودخلت التابوت الى نوح اثنين اثنين من كل ذي جسد فيه روح حياة .

١٦ - والداخلون دخلوا ذكوراً وإناثاً من كل ذي جسد كما أمره الله وأغلق الرب عليه .

١٧ - وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض ، فكثرت المياه وحمل التابوت فارتفع عن الأرض .

- ١٨- وكثرت المياه جداً وتعاظمت على الأرض فسار التابوت على وجه الماء .
 ١٩- وكثرت المياه جداً جداً فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء كلها .
 ٢٠- وعلت المياه خمسة عشرة ذراعاً على الأرض وتغطت الجبال .
 ٢١- فهلك كل ذي جسد يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وجميع الزحافات التي تزحف على الأرض والناس كافة .

- ٢٢- وكل من في أنفه نسمة حياة من كل من في اليبس ماتوا .
 ٢٣- ومحا الله كل قائم كان على وجه الأرض من الناس والدبابات وطيير السماء، فانمحت من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط .

- ٢٤- وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً .
 وفي هذا الاصحاح تكرر لبعض ما ورد في الاصحاح السادس ، ويمكن تحديد بعض النقاط الاساسية فيه بما يلي :

- ١ - حدد الله لنوح موعد ابتداء الطوفان ، وهو اليوم السابع عشر ، من الشهر الثاني من السنة ست مائة من عمر نوح ، وأبلغه قبل سبعة أيام من بدء المطر ، وأن المطر سيدوم أربعين يوماً وأربعين ليلة ، فعظم الماء ، واستمر تعاظم الماء مئة وخمسين يوماً (ربما نتيجة فيضانات آتية من مكان بعيد) .
 ٢ - غطت المياه قمم الجبال الشامخة ، وارتفعت على الأرض خمسة عشر ذراعاً ، ولم يحدد النص ارتفاعها فوق قمم الجبال ، ولكن يفهم أن كامل اليابسة غمرت بالمياه، « وارتفاع الماء خمسة عشر ذراعاً غير كافٍ لتغطية أي تل عادي في سهل منبسط » .
 ٣ - أهلك الطوفان جميع الأحياء على اليابسة، وهذا يفيد أن الأحياء العالية هي من سلالة ما حمله نوح في السفينة .

□ الاصحاح الثامن :

- ١ - وذكر الله نوحاً وجميع الوحوش والبهائم التي معه في التابوت ، فأرسل الله ريحاً على الأرض فتناقصت المياه .
 ٢ - وانسدت عيون القمر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء .
 ٣ - وكانت المياه تتراجع على الأرض كلما مرت وعادت ونقصت المياه بعد مئة وخمسين يوماً .
 ٤ - واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال آارات .
 ٥ - وكانت المياه كلما مرت نقصت الى الشهر العاشر وفي أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال .
 ٦ - وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها .

- ٧ - وأطلق الغراب فخرج وجعل يتردد الى أن جفت المياه عن الأرض .
- ٨ - ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاصت المياه على وجه الأرض .
- ٩ - فلم تجد الحمامة مستقراً لرجلها فرجعت اليه ، الى التابوت اذ كانت المياه على وجه الأرض كلها ، فمدّ يده فأخذها وأدخلها اليه الى التابوت .
- ١٠ - ولبت أيضاً سبعة أيام آخر وعاد فأطلق الحمامة من التابوت .
- ١١ - فعادت اليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه قد جفّت عن الأرض .
- ١٢ - ولبت أيضاً سبعة أيام آخر ثم أطلقها فلم تعد ترجع اليه أيضاً .
- ١٣ - وكان في سنة احدى وست مئة في اليوم الأول من الشهر الأول أن جفت المياه عن الأرض ، فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فاذا وجه الأرض قد نشف .
- ١٤ - وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفّت الأرض .
- ١٥ - فخاطب الله نوحاً قائلاً :
- ١٦ - أخرج من التابوت أنت وامراتك وبنوك ونسوة بنيك معك .
- ١٧ - وجميع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب الساعي على الأرض أخرجهن معك ليتوالدن في الأرض وينمون ويكثرن عليها .
- ١٨ - فخرج نوح وبنوه وامراته ونسوة بنيه معه .
- ١٩ - وجميع الوحوش والدبابات والطيور وكل ما يدب على الأرض بأصنافها خرجت من التابوت .
- ٢٠ - وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة ، ومن جميع الطير الطاهرة ، فأصعد محرقات على المذبح .
- ٢١ - فتنسم الرب رائحة الرضى وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الانسان ، بما أن تصور قلب الانسان شرير منذ حادثته ، ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت .
- ٢٢ - وأبدأ ما دامت الأرض فالزرع والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل .
- وفي الاصحاح التاسع ، تشير الآيات الى رضى الله على نوح وبنيه ، وعهد الأمان بعدم انقراض الحياة على الأرض .
- في الاصحاح الثامن وصف لتراجع المياه واستقرار السفينة (التابوت) على جبال آارات ووصف لاطلاق نوح الطيور للتأكد من انحسار الماء فأطلق الغراب ثم أطلق الحمامة مرتين . ودام الطوفان أكثر من سنة على الأرض منذ ابتداء المطر وحتى جفاف الأرض .

ويقدم نوح ذبائح طاهرة للرب فيتنسم رائحتها بالرضى ، ويتمهد بعدم لعن الأرض وتدمير الحياة عليها .

رواية التوراة لقصة الطوفان تقنعنا في أجواء أساطير الطوفان البابلية وبشكل خاص ملحمة جلجامش ، ويمكن الإشارة الى بعض العناصر المشتركة بدرجات قريبة من التطابق :

أولاً : سبب الطوفان : تكاثر البشر ، وازدياد شرورهم وازعاجهم للآلهة (في الأساطير) وفي التوراة نفس الأسباب مع ندم الرب على خلقه لهم ، والتوراة تقر بالتوحيد (إله واحد) .

ثانياً : صاحب السفينة : رجل صالح ، تختاره الآلهة ، وتأمرة ببناء السفينة لينجو هو وأهله وأقرباؤه فقط (في الأساطير) . وفي التوراة الرجل الصالح (نوح) يأمره الله ببناء السفينة لينجو بنفسه وأهله فقط .

ثالثاً : السفينة : يحدد الله أبعادها في بعض الأساطير ، كما في ملحمة جلجامش ، والتوراة فيها تحديد لأبعاد السفينة .

رابعاً : مدة الطوفان : حددت الأساطير مدة الطوفان بالأيام ، في السومرية سبعة أيام بلياليها ، وفي البابلية ستة أيام بلياليها ، وفي اليونانية تسعة أيام بلياليها ، وفي التوراة أربعين يوماً وأربعين ليلة مطر ، ودام الطوفان أكثر من سنة . والتشابه ليس في التحديد بل في تعيين الزمن (الهدف من التوقيت) .

خامساً : الطيور للاستطلاع : أطلق أوت-نابشتيم بعد استواء السفينة على جبل نصير ، حمامة - ثم سنونو - ثم غراباً ، ثلاثة طيور ، وأطلق نوح ، غراباً ثم حمامة ثلاثة مرات .

وأنوه أن هذا التشابه في العناصر بين أساطير الطوفان ، ورواية التوراة ، لا ينفي حقيقة الطوفان بمقدار ما يؤكدنا ، ولكن كنية التوراة يبدو أنهم تأثروا بروايات الأساطير فأرادوا إعطاء مبررات ودوافع أكثر منطقية للطوفان ، ووصف حوادث ونتائجه بخلفية الايمان بالله واحد .

□ قصة الطوفان في القرآن الكريم :

ذكرت قصة نوح في عدة سور بشيء من التفصيل في الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر وسورة نوح ، وتختلف الآيات بالالفاظ بحسب ما تكون الغاية من إيراد الآيات والمراد من معناها ، سنكتفي بإيراد ما يفيد هذا البحث عن الطوفان . جاء في سورة نوح :

« إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أن انذر قومك من قبل أن ياتيهم عذاب أليم (١) قال يا قوم إني لكم نذير مبين (٢) أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون (٣) يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤) قال ربي إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً (٥) فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً (٦) وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً (٧) ثم إني دعوتهم جهاراً (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً (٩) فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (١٠) يرسل السماء عليكم مدراراً (١١) »

ويعيدكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً (١٢) ما لكم لا ترجون لله وقاراً (١٣) وقد خلقكم أطواراً (١٤) ألم تروا كيف خلق الله سبع سافاتٍ طباقاً (١٥) وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً (١٦) والله انبتكم من الأرض نباتاً (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم أخرجاً (١٨) والله جعل لكم الأرض بساطاً (١٩) لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً (٢٠) قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً (٢١) ومكروا مكراً كبيراً (٢٢) وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً (٢٣) وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً (٢٤) مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً (٢٥) وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين دياراً (٢٦) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً (٢٧) رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً (٢٨) »

نلاحظ من سورة نوح ، أن الله اختاره رسولاً لينذر قومه قبل أن يأتيهم العذاب الأليم فيؤدي نوح رسالته ، ويبدل كل ما بوسعه لهدايتهم ، يقدم لهم الأدلة والبراهين الكونية على وحدانية الله ليركوا عبادة الآلهة الوثنية ، فلم يستجيبوا له ، فطلب نوح من ربه أن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً ، ويستجيب الله لدعائه ، ونوح عليه السلام في القرآن الكريم كما ذكرنا مرسل من الله بينما في التوراة رجل صالح لم يكلف بالرسالة ، فآله في التوراة يقرر هلاك البشرية والحياة على الأرض ، بينما في القرآن لا يتخذ الله هذا الموقف إلا بعد انذارهم وعدم إيمانهم واستكبارهم استكباراً .

وفي سورة هود حوار بين نوح وقومه ، يريد هدايتهم ولكنهم في ضلالهم يعمهون فيقص القرآن الكريم : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون (٣٦) واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (٣٧) ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون (٣٨) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٣٩) حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل (٤٠) قال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم (٤١) وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (٤٢) قال ساوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المفارقة (٤٣) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا ساء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين (٤٤) ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وانت أحكم الحاكمين (٤٥) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين (٤٦) قال ربي إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترجني أكن من الخاسرين (٤٧) قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم (٤٨) »

في الآيات السابقة من سورة هود ، تأكيد أن صناعة الفلك كان بأمر من الله ووحى منه ، وهذا يتفق من نص التوراة في المزمور ، كما هناك اتفاق بين حمل الأحياء بالأزواج ، وإن كانت التوراة

أكثر تفصيلاً للأصناف ، ورست سفينة نوح (التابوت) على جبل آرات بينما استوت سفينة نوح في القرآن على الجودي ، وجبل آرات يقع حالياً في أرمينيا بينما الجودي شمال العراق . ولا يتسع المجال لايراد كافة الآيات التي تناولت رسالة نوح والطوفان ، ومن مجملها نخلص الى الارشادات التالية :

- أولاً : لا يوجد قرار إلهي مسبق بتدمير الحياة على الأرض كما ورد في الأساطير والتوراة .
- ثانياً : الرجل الصالح المختار هو نوح ، وهو رسول الى قومه قبل قرار الطوفان ، بينما كان اختيار الرجل الصالح في الأساطير بعد قرار الطوفان .
- ثالثاً : تفاصيل الحدث غير واردة في القرآن ، كما هي مفصلة في التوراة بالأيام والأشهر والأرقام فحجم الفلك في القرآن غير محدد ولكن وصف (بالفلك المشحون) بينما في التوراة وبعض الأساطير ترد أرقام تثير ملايسات عديدة .
- رابعاً : لم يفصل القرآن في مدة الطوفان وارتفاع المياه بالأذرع ، ولكن وصف أمواج الطوفان كالجبال ، كما لم يشر الى إطلاق الطيور للاستطلاع .
- خامساً : حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين لاستمرار التناسل، وحمل أهله باستثناء زوجته (١١) التي لم تؤمن ، وهذا يخالف ما ورد في التوراة وبعض الأساطير .
- سادساً : تحدد التوراة أولاد نوح ، سام وحام ويافت ، ولم يحدد القرآن ذلك ولكن يفهم من آيات مختلفة أن ذريته هم الباقين .

هل الطوفان حقيقة ؟

لا مجال لانكار الطوفان ، اذ أجمعت الأساطير والكتب المقدسة على وقوع هذا الحدث الكوني . واختلاف الدوافع والغايات والنتائج في الروايات المختلفة عن الطوفان ، ليس دليلاً على عدم وقوع الطوفان . فأي حدث بهذا الحجم تقادم عليه العهد سيكون عرضة للتأويل والتحريف . وقد فصلت التوراة في قصة الطوفان فلم تترك مجالاً للتأويل ، بغض النظر عن مصداقية المواصفات والأرقام التي وردت عن السفينة ومدة الطوفان، وهل ذلك ممكن من الناحية العملية ؟

أما القرآن الكريم فقص على محمد (ﷺ) قصة نوح « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

فلم يوضح أين كان نوح ؟ ومن هم قومه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وكم بقي الطوفان ؟ وهل كان عاماً على كامل الأرض ؟ واستواء السفينة (الفلك) على الجودي لا يعني بالضرورة الجبل المسمى بهذا الاسم حالياً ، لذلك كان أمام المفسرين والمؤرخين المسلمين ، مجال واسع للتأويل والاختلاف بما لا يتعارض مع المراد بالبيان الإلهي .

فأخذوا من التوراة ، ومن روايات أشخاص لا علم لهم بما سلف ، بدليل أن الرسول (ﷺ) لم يعرف قصة نوح الا بالوحي فكيف عرف أولئك تفاصيل الأحداث ؟

وأذكر على سبيل المثال ما ورد في تفسير ابن كثير عن أبعاد الفلك : « وقال قتادة كان طولها ثلاث مائة ذراع في عرض خمسين ذراع ، وعن الحسن طولها ستمائة ذراع ، وعرضها ثلاث مائة ، وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ، وقيل طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع فالله أعلم ، وقالوا كلهم كان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع » (١٢) .

وهناك تباين في الآراء حول تخصيص الطوابق الثلاثة لأصناف الأحياء ، ففي رواية ابن كثير « الطبقة السفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للأنس ، والعليا للطيور » (١٣) .

وفي رواية ابن الأثير « وجعل نوح الطير في الطبقة الأسفل من السفينة ، وجعل الوحش في الطبقة الأوسط ، وركب هو ومن معه من بني آدم في الطبقة الأعلى » (١٤) .

وفي رواية اليعقوبي « فصعد هو (يقصد نوح) وولده الى مفارة الكنز فاحتملوا جسد آدم فوضوه في وسط البيت الأعلى في السفينة يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من آذار وأدخل الطير في البيت الأوسط وأدخل الدواب والسباع البيت الأسفل وأطبقها حين غابت الشمس » (١٥) .

ويتضح التباين أكثر بالمقارنة التالية :

الطابق العلوي	الطابق الأوسط	الطابق السفلي
الطيور	الأنس	الوحوش
الأنس	الوحوش	الطيور
الأنس	الطيور	الوحوش

وقد لجأ المفسرون الى روايات مختلفة ، بعضها نسب الى الرسول (ﷺ) ، ولا أظن أن الرسول (ﷺ) فصل في القصص حيث أجمل القرآن ولم يعرفها من قبل ، وأذكر هنا قصة أم الصبي « روى الامام أبو جعفر بن جرير والجبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يعقوب بن موسى الزمعي عن قائد مولى عبيد الله بن أبي رافع بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبرته أن النبي (ﷺ) قال : « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » قال رسول الله (ﷺ) : « كان نوح (عليه السلام) مكث في قومه ألف سنة الا خمسين عاماً ، وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وزهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري ؟ قال : سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك ، خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً ، فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبته ارتفعت بيديها ففرقا ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي » . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد روى كعب الأحبار ومجاهد ابن جبر قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا » (١٦) .

لو صحت هذه الرواية في مضمونها فكيف تتمكن هذه المرأة العزلاء من صعود الجبل في جو عاصف ماطر ؟ وكيف تمكنت من الثبات على قمة الجبل حتى وصل الماء الى رقبته ؟ روايات كثيرة من هذا القبيل شوهت حقيقة الطوفان ، وجعلته أقرب الى الأساطير ، وترسخت في أذهان عامة الناس ، وأصبحت في حكم المسلمات التي لا تدحض ببرهان .

« قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ، حدثنا عبدالله بن صالح ، كاتب الليث ، حدثني الليث ، حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ، عن أبيه أن رسول الله (ﷺ) قال : (لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف تطمئن المواشي ومعها الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض ، ثم شكوا الفأرة فقالوا الفوسيقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله الى الأسد ، فمطس فخرجت الهرة منه ، فتخبأت الفأرة منها » (١٧) .

والرأي الشائع عند عامة الناس عن طوفان نوح هو جماع ما ورد في الأساطير والتوراة وروايات المفسرين والمؤرخين ، وبقيت الحقيقة غائبة ، وملخص الرأي الشائع :

أولاً : طوفان نوح عمّ كامل الكرة الأرضية ، قبل ستة آلاف سنة تقريباً ، فأهلك كل البشر والأحياء البرية ، باستثناء ما حمّله نوح في السفينة ، فالبشر الحاليين هم من سلالة نوح « أبو البشر الثاني » .

ثانياً : رست سفينة نوح على جبال آارات في اعتقاد أهل الكتاب ، وعلى الجودي في اعتقاد المسلمين ، والموقعان هما في شمال بلاد الرافدين من الناحية الجغرافية . فهل هذا الرأي صحيح ؟

الاجابة تقودنا الى مناقشة الرأي على ضوء الواقع ، والاكتشافات الأثرية التي تدل على حدوث الطوفان أو عدم حدوثه .

أولاً - هل كان الطوفان عاماً ؟ أم خاصاً بموقع جغرافي محدد ؟

من الناحية العلمية وضمن ما ورد في سياق نصوص الأساطير ، والكتب المقدسة ، لا يمكن أن يكون الطوفان عاماً لكل اليابسة في الكرة الأرضية . فمن أين جاءت فكرة التعميم ؟ ربما لاحظ الإنسان في ذلك العصر كما نلاحظ اليوم وجود مستحاثات حيوانية بحرية ضمن صخور الجبال العالية كجبال طوروس وجبال آارات وجبال الألب وجبال هيملايا . ولا يمكن تعليل وجود هذه المستحاثات المائية في تلك الصخور الا بافتراض طغيان الماء عليها . و الحقيقة من يدرس الجيولوجيا (علم الأرض) ، يعلم أن جغرافية الأرض تبدلت كثيراً في الأحقاب السابقة قبل ملايين السنين ، فما نراه اليوم يابسة كان قمرأً لبحر لحي عميق والشاهد على ذلك طبيعة الرسوبيات وما تحمله من بقايا أحياء بحرية ، فرسوبيات الشاطئ تختلف عن رسوبيات الرصيف القاري ورسوبيات المنحدر القاري ، كما لرسوبيات الأعماق طبيعة معينة . وعلى سبيل المثال كشفت التحريات الجيولوجية أن رسوبيات جبال طوروس وجبال آارات كانت متوضعة في قعر بحر عميق قبل مائتي مليون سنة في الحقب الثاني ، في العصر الذي انتشرت فيه الزواحف الضخمة « الديناصورات » .

ونتيجة الضغط الداخلي على قشرة الأرض وتحرك الصفائح القارية تنشأ السلاسل الجبلية وهكذا نشأت السلاسل الجبلية المذكورة أعلاه ، ويقدر العلماء أن جبال آرارات انحسر عنها الماء قبل ستين مليون سنة نتيجة ارتفاع المنطقة ببطء وما زالت ترتفع . والبحر يتراجع للأماكن المنخفضة .

وفي بعض المناطق حدث ارتفاع اليابسة ثم انخفاضها ثم ارتفاعها ثانية ، فطنى عليها الماء مرتين كما يستدل على ذلك من رسوبياتها ، ولكن هذه الأحداث تتم بمقياس زمني جيولوجي يقدر بملايين السنين ، فلا يصح تعليل طوفان نوح بأنه أحد دورات المد البحري على اليابسة لأنه دام عدة أيام وعلى الأكثر سنة كما تروي التوراة ، وحدث قبل بضعة آلاف سنة وهذا لا تؤيده التحريات الجيولوجية .

وتؤكد النصوص الدينية على اهلاك كافة البشر باستثناء من كان في السفينة واهلاك كبل الأحياء البحرية باستثناء ما حملة نوح في السفينة، ولا يستشف منها أن الطوفان عام فنوح كان يعيش في منطقة معينة (نفترض أنها في منطقة بلاد ما بين النهرين) ، فإذا كان قومه محصورين في تلك المنطقة فقط ، وهم كامل البشرية على الأرض ، ولا يوجد غيرهم في أوروبا وإفريقيا وشرق آسيا ، فلماذا يعم الطوفان على تلك البلاد لاهلاك الأحياء البرية ؟

وإذا افترضنا وجود بشر آخرين غير قوم نوح في مصر والصين وأوروبا وبلدان أخرى فلماذا نعم عليهم دعوة نوح بالهلاك ويفرقهم الله جميعاً ، والنص القرآني صريح : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

إن طوفان نوح كان في منطقة محددة ، فأهلك قومه الذين لم يؤمنوا بدعوته ، وأمر الله له بحمل من كل زوجين اثنين من الحيوان لا يعني حمل كل الأنواع ، إذ يكفي أن يحمل ما دجنه الإنسان ، كما يحدث حالياً عندما يرحل البدو من منطقة إلى أخرى ينقلون معهم دوابهم وأنعامهم . ولا شك أن طوفان نوح كان عارماً شمل منطقة واسعة جداً ، لذلك ترك في نفوس الناجين وذاكرة الأجيال التالية أثراً لا ينمحي ، فظهر الحدث في الملاحم الأسطورية وأعطت التوراة بعداً جديداً للحدث ينسجم مع نفسية اليهود ورغبتهم في السيطرة على العالم . والقرآن الكريم أجمل الحدث ، فاكد الحقيقة ولم يؤكد التعميم .

فإذا كان الطوفان خاصاً بقوم نوح وطنى على المنطقة التي كان يعيش فيها .

□ فإين حدث الطوفان ؟

الحضارة السومرية والبابلية كانتا في منطقة بلاد ما بين النهرين ، وترك الطوفان السابق أثراً بالغاً في وجدان الناجين ، والأجيال اللاحقة تلمقت الخبر من الأسلاف فجعلت الحدث في الملاحم الأدبية الأسطورية . فالطوفان بحسب النصوص البابلية حدث في بلاد الرافدين ودمر مدينة (شوريباك) على نهر الفرات . وفي التوراة اشارات إلى حدوث الطوفان في بلاد الرافدين أيضاً وذلك من خلال انتشار أولاد نوح (عليه السلام) وحفدائه بعد الطوفان ، وهبوط السفينة على جبال آرارات

تأكيد لحدوث الطوفان في هذه المنطقة ، فمنابع دجلة والفرات هي من الهضاب في أرمينيا وشمال شرق تركيا حالياً . وجبل الجودي يقع حالياً في شمال العراق وهو جزء من بلاد ما بين النهرين .
فهل أثبتت التحريات الجيولوجية ، أو التنقيبات الأثرية حدوث الطوفان قبل ستة آلاف سنة ؟

□ الحفريات الأثرية تثبت حدوث الطوفان(١٨) :

في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٥-١٩٣٠ قام المالم البريطاني ليونارد وولي Leonard Woolley — وزوجته كاترين وولي Katherine Woolley — بدراسة موقع Ur - القديمة فأجرى حفريات عديدة ، واكتشف بقايا آثار الأمم الغابرة التي تعاقبت على هذا الموقع ، وكل طبقة تمثل حقبة من الزمن ، ومرحلة قامت على انقراض مرحلة أخرى ، وتحت هذه الانقراض ظهرت طبقة رسوبية طينية نظيفة ، وهي لم تأخذ شكلاً طباقياً ، ومستواها أعلى من مستوى الأرض السبخة الأساسية المحيطة بها . وظل الحفر في هذه الطبقة مستمراً ، وعلى عمق أحد عشر قدماً في هذه الطبقة ، تم اكتشاف آثار وأنقاض وهياكل بشرية . وإثار هذا الاكتشاف العالم (وولي) وأمر بالحفر في اتجاهات مختلفة فتأكد أن هذه الطبقة الطينية تمتد على مساحات واسعة . وأسفلها طبقات من الانقراض . وتساءل وولي من أين جاءت هذه الطبقة الطينية ؟

لاحظ وولي أن المستوى العلوي للطبقة داكن اللون ومكون من مواد مفككة ، وأوسطها أفتح لوناً وأكثر تماسكاً ، وأسفلها قاتم ، ولا يتشكل هذا الوضع الا بتدفق ماء بمقادير هائلة .

لا شك أن مدينة أور وما يجاورها دفنت تحت هذه الرسوبيات نتيجة طوفان عارم ، وإذا كانت سماكة الطبقة الطينية المكتشفة (١١) قدماً فكم سيكون ارتفاع مد الطوفان ؟ .

لا شك أنه يتجاوز هذا الرقم بكثير ، وإذا علمنا أن أور ازدهرت في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد فان الطوفان الذي دمر أور القديمة يكون قد حدث قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ، فهل هو طوفان نوح المذكور في التوراة والقرآن ؟ العلم عند الله .

ثانياً — أين استوت سفينة نوح ؟

في أساطير الطوفان وفي التوراة ، كانت السفينة ترسو على جبل ، ففي النص البابلي ورد اسم جبل نصير (حمرين) وفي النص اليوناني جبل (البرناس) وفي التوراة (جبال آارات) ولم تحدد قمة معينة ، وفي القرآن الكريم لم يرد لفظ الجبل ، واسم الجودي لا يعني جبلاً محدداً فهل رست السفينة فعلاً على قمة جبل شامخ ؟

وإذا وصلت سفينة نوح كما تزوي التوراة الى قمة آارات العالية فلا شك أن الماء غطى كامل الكرة الأرضية .

واستدل بعض المفسرين من معاورة نوح مع ابنه الذي لم يؤمن ، قبل أن يفرق ، عندما طلب من نوح أن يؤمن ويركب الفلك ، فقال الابن سأوي الى جبل يعصمني من الماء ، فردد نوح عليه

لا عاصم اليوم من أمر الله • استدلو على أن الماء سيطنى على قمم الجبال بكاملها ، والآية القرآنية التي أوردت حوار نوح مع ابنه ، لا تعني أن الابن صعد فعلاً الى الجبل ، ومنتصور الآن فلماً مشحوناً بالمؤن والحيوانات وبعدد من البشر ، لا شك هومن الكبير يتجاوز حجوم المراكب التي كانت قبل ستة آلاف سنة ، تمخر الخلجان وشواطئ البحار ، هذا الفلك الكبير كيف سيتحرك وفي أي اتجاه إذا كان في جنوب العراق ؟

ان مياه الفيضانات في بلاد ما بين النهرين تتجه من الشمال حيث المرتفعات الجبلية الى الجنوب لتصب في الخليج العربي • وإذا ترك هذا الفلك بدون توجيه ، سيتحرك باتجاه الجنوب بينما أكدت الأساطير والتوراة أن السفينة رست على الجبال الشمالية العالية ، قرب منابع الأنهار • من الطبيعي أن يتوجه الفلك بإرادة الملاح باتجاه المنطقة الأكثر أماناً ، ولكن الطوفان معجزة إلهية ، وبناء السفينة كان بوحي من الله ، فلا شك أنها ستجري بأمر الله ورعايته • وترسو باسمه في المكان الذي قدره الله ، « إركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم » - هود - (٤١) • « وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري باعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر » - القمر (١٣-١٤-١٥) •

ان اتجاه الطوفان في ضوء جغرافية المنطقة سيكون من الشمال الى الجنوب ، وتحركت السفينة من الجنوب الى الشمال ، فهل كان اتجاه المواصف من الجنوب الى الشمال ؟ أي جاءت الفيضانات من الشمال وتحركت أمواج الخليج العربي من الجنوب بفعل الأعاصير فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدر • وتحرك السفينة في هذه الحالة بقوة دفع الرياح باتجاه الشمال • ولكن هل رست فعلاً على جبال آرارات ؟

ان دراسة صخور جبال آرارات والجودي لا تؤكد وجود لحقيات فيضانية قريبة العهد ، فهي رسوبيات تعود الى ملايين السنين • ويبقى احتمال التأويل وارداً ، من أن السفينة اتجهت من لجنوب ، حيث كان يعيش نوح مع قومه في الأغوار في جنوب العراق ، الى الشمال بعد حدوث الطوفان الذي ارتفع عدة أمتار فغطى كامل المنطقة ، وأهلك كل حي يدب على الأرض ووصلت السفينة الى سلسلة الجبال الشمالية ، فرست هناك ونزل منها نوح ومن معه فاتخذوا من المرتفعات مقراً لهم ريثما تعود الأمور الى طبيعتها السابقة ، وكان أمر الله مفعولاً •

ترك هذا الحدث في ذاكرة الأجيال اللاحقة صورة معينة عن هذا الطوفان ، فقد أهلك الحياة على الأرض ، وعمّ اليابسة بكاملها ، وانسحب التعميم على قمم الجبال ، ولا شك أن الباحث يتساءل لماذا قدر الله استواء السفينة على جبل شاق ؟ فالجبال أقل صلاحية للسكن والاستقرار والزراعة وتربية الماشية ، وما دام الطوفان عقوبة إلهية ، والناجون من الطوفان يستحقون مكافأة على ايمانهم فكان الأولى أن ترسو السفينة بعد الطوفان في مكان خصب سهل منبسط • والله سبحانه الذي أوحى لنوح صناعة السفينة وقدر مجراها ومرساها لم يترك السفينة في مهب الأعاصير أو دوامات المياه لتستوي بالصدفة في مكان مرتفع ولينتظر نوح ومن معه في السفينة أياماً حتى تجف المياه ، والقرآن الكريم لم يقطع باستواء السفينة على جبل شامخ ، وكما ذكرت لفظة الجودي لا تعني

جبلاً محدداً ، لذلك يمكن فهم حقيقة الطوفان بعيداً عن الأجواء الأسطورية . ولكن المنطق العلمي يفترض أن يلجأ الانسان في حوادث الطوفان الى الأماكن المرتفعة وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لطوفان نوح (عليه السلام) .

□ قايين رست سفينة نوح ؟ وهل تم العثور على آثارها ؟

قبل الاجابة عن هذين السؤالين ، أين يمكن البحث عن سفينة نوح وآثارها ؟

حددت التوراة جبال آرارات ، وذكر القرآن الجودي وأسطورة جلجامش حددت جبل نصير (حمرين) والأسطورة اليونانية حددت جبل (البرناس) . فأي المواقع مرشح للبحث والتنقيب؟ معظم الأبحاث تركزت على آرارات لأسباب عديدة ، اما لاثبات حقيقة الطوفان ، أو لنفي صحة الخبر الوارد في التوراة ، أو حباً في الاستطلاع والمغامرة .

يقول : كريستيان هيرالد (١٩) « لم تذكر التوراة قمة معينة بل اكتفت بالإشارة الى جبال آرارات ، ويسلم الجميع بأن آرارات لم تكن تعني في ذلك الحين جبلاً محدداً ، بل منطقة واسعة جداً سميت فيما بعد بأرمينيا ، وهي تشمل أجزاء من تركيا الحديثة وإيران والعراق والاتحاد السوفيتي ومئات من القمم » ، وبما أن جبل آرارات ينتصب منعزلاً متشامخاً الى ارتفاع (٤٢٦٧) متراً في السهول في أطول منحدر متناسق في العالم ، فإن قمته لا بد أن تكون الأولى التي برزت فوق الماء في تلك المنطقة ، لذلك يعتقد الأرمن أن السفينة استقرت عليه .

وأصبحت للجبل حرمة مقدسة لم يتجرأ أحد الصعود اليه والبحث عن السفينة ، من أهالي المنطقة . « وأول بعثة تسلقت جبل آرارات برئاسة الفرنسي فريدريك بارو عام ١٨٣٩ ، ولم يبحث عن السفينة ولم يجدها ، لكنه ترك أثراً في علم أطلقت عليه تسمية (علم أبحاث سفينة نوح) وبهذا انتهك (التابو) القديم الذي كان يحظر على الأهالي المحليين تسلق الجبل ومهد بذلك الدرب لاجراء الأبحاث اللاحقة » (٢٠) .

وفي عام ١٨٧٦ عشر اللورد برايس فوق حافة نائثة من الجبل تبرز على ارتفاع (١٣) ألف قدم على قطعة خشبية منحوتة يبلغ طولها زهاء أربعة أقدام .

واكثرت الروايات عن مقامرات المستكشفين ، ولا يغلو بعضها من التأكيد على رؤية بقايا من سفينة نوح ولكن لم تقطع تلك الروايات الشك باليقين والأدلة الدامغة .

« ان الشاهد الحسي الوحيد على وجود الفلك هو قطع خشبية وجددها المتسلقون على الجبل وأكثر هذه القطع اثارة للجدل ، قطعة دكان صنعت باليد وغدت متحجرة جزئياً ، وجددها فرنسي يدعى قرئان نافارا عام ١٩٥٥ وقد تولى مخبر اسباني فحص خلاياها فحدد عمرها بنحو (٥٠٠٠) سنة وهو الزمن التقريبي لصنع الفلك . الا أن اختصارين أجريا في مكانين مختلفين بالأشعة الايزوتونية (لنصر الكربون - ١٤) وأحدهما في جامعة أمريكية والآخر في جامعة بريطانية حددوا تاريخ خشبة نافارا بين (١٢٠٠) و (١٤٠٠) سنة فقط » (٢١) .

ويعلق العالم السوفيتي : ي. ا. ريزانوف مستشهداً بمضمون كتاب (أدوارد زيوس) الذي نشره عام ١٨٨٣ م بعنوان « وجه الأرض » الذي قارن فيه بين ملحمة جلجامش الكلدانية ورواية التوراة فيقول : « والرواية الكلدانية تحصر الطوفان في حدود قليلة ومعقولة تماماً ، فالمطر يتساقط لمدة سبعة أيام فقط ، والمياه لا تغمر حتى جبل (حميرن) الذي يبلغ ارتفاعه زهاء (٤٠٠) متر ، وتوقف السفينة عند جبل حميرن في الوقت الذي بلغ فيه الطوفان حده الأقصى يعطينا صورة عن ارتفاع مستوى المياه . فهذا الجبل يقع في حدود منبسط ما بين النهرين ، ويكفي أن ترتفع المياه نحو (٥-١٠) أمتار فحسب لكي تغمر المياه المنبسطة بأسره باستثناء الجبل المذكور وقد خلص أدوارد زيوس الى استنتاج مؤداه أن المقصود بالطوفان العظيم هو الفيضان المدمر الذي حدث في المجرى الأسفل لنهر الفرات والناجم عن هبوب أعصار من الجنوب . لكن ما الواجب قوله بصدد رواية الكتاب المقدس القائلة أن سفينة نوح رست عند قمة آراتات وأن حطام السفينة الأسطورية موجود فوق هذا الجبل ؟ ليس من العسير ملاحظة أن رواية الكتاب المقدس عن الطوفان تتسم بالمبالغة في وصف عواقب الظاهرة الطبيعية التي حدثت . فمثلاً ان فترة الطوفان استمرت عاماً كاملاً . لقد نقل مدونو رواية الكتاب المقدس عن الطوفان مكان الأحداث ، رغبة منهم في تشديد عواقبه ، من جبل حميرن غير المرتفع الى أعلى جبل في آسيا الصغرى أي آراتات » (٢٢) .

ويتابع زيزانوف قوله : « ان بحري قزوين والأسود هما أقرب حوضين بحريين الى جبل آراتات وبلغت مياه حوض قزوين أعلى منسوب لها قبل (١٠) آلاف سنة وأنداك بلغ منسوب مياه بحر قزوين (٤٨-٤٦) متراً من الارتفاع المطلق - (حوالي ٧٥ متراً فوق المستوى الحالي لبحر قزوين) . وبلغ الارتفاع نفسه منسوب المياه في البحر الأسود ، وبهذا فلم يكن البحر يغمر على مدى المليون عام الأخير جبل آراتات ومنطقة القفقاس بأسرها . وفي منطقة جبل آراتات وجدت رواسب بحرية لا يقل عمرها عن ٢٠ / مليون عام ، وتكونت قبل أن يكون وجود لجبل آراتات في الحقبة التاريخية المذكورة ، فلا تتوافر المسوغات اذن للبحث عن سفينة نوح هناك . أما الألواح وحطام الأخشاب على قمة آراتات ، فقد تكون موجودة هناك ، لكنها لم تعمل اليها مع الطوفان . اذ قد تكون بقايا منشآت عبادة للبشر القدامى ، نظراً لأن آراتات كان منذ قديم الزمان يحظى بتكریم خاص لدى الشعوب القاطنة حوله » (٢٣) .

أما بالنسبة للجودي (الجبل الحالي) فهناك روايات غير موثوقة ، عن عثور بعض المستكشفين على ألواح خشبية ومسامير كبير (دسر) قديمة جداً على قمة الجبل .

□ خلاصة البحث :

طوفان نوح حقيقة لا مرأ فيها ، اهلك قوم نوح ، حدث ذلك في منطقة بلاد ما بين النهرين ، وكان طوفاناً عارماً ، وما جاء في الأساطير والتوراة ببائغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع ، وقواعد المنطق .

اعداد : محمد فيض الله الخاملي

□ هوامش البحث :

- ١ - د. نورالدين حاطوم وآخرون - موجز تاريخ الحضارة - الجزء الأول - مطبعة الكمال - ١٩٦٥ . الحضارة السومرية - ص (١٥٦) .
- ٢ - فراس سواح - معامرة العقل الأولى - اتحاد الكتاب العرب - ١٩٧٦ (نصوص الأسطورة منقولة حرفياً من الكتاب) .
- ٣ - فراس سواح - المرجع السابق - ص (٢١١) .
- ٤ - فراس سواح - المرجع السابق - ص (٢١٢ - وما بعدها) .
- ٥ - فراس سواح - المرجع السابق - ص (٢٢٤) .
- ٦ - فراس سواح - المرجع السابق - من ملحمة أتراهيس - ص (٢٢٦ - وما بعدها) .
- ٧ - فراس سواح - المرجع السابق - ص (٢٣٨) - بشيء من التصرف .
- ٨ - أختت المعلومات من ثلاثة مراجع - فراس سواح - مغامرة العقل الأولى - ص (٢٠١) - ومجلة المعرفة السورية - العدد ١٩٧ - تموز ١٩٧٨ بحث « أصداء عربية في الأسطورة الغربية - لعزالدين الخير - ومعجم الأساطير اليونانية والرومانية - سهيل عثمان وعبدالرزاق الأصغر - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٨٢ » .
- ٩ - تاريخ الأدب الهندي - الجزء الأول - للسيد أبي النصر أحمد الحسيني البهوبالي الهندي - عن قصص الأنبياء لعبدالوهاب النجار - ص (٤٦ - ٤٧) .
- ١٠ - عن نسخة الكتاب المقدس - العهد العتيق - جمعيات الكتاب المقدس المتحدة - ساحة النجمة - بيروت - المطبعة الكاثوليكية ١٩٥١ .
- ١١ - اختلف المفسرون حول نجاة زوجة نوح ، فمنهم من قال أنها ماتت قبل الطوفان ، ومنهم من قال أدخلها السفينة لأنها من أهله ، ومنهم من قال كانت له أكثر من زوجة ، والقرآن لم يفصل ذلك والأرجح أن زوجته الغائبة هلكت مع الهالكين .
- ١٢ - ابن كثير - تفسير القرآن - الجزء الثاني - ص (٤٤٤) .
- ١٣ - ابن كثير - تفسير القرآن - الجزء الثاني - ص (٤٤٤) .
- ١٤ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - الجزء الأول - إدارة الطباعة المنيرية - مصر ١٣٤٨ الصفحة (٤٠) .
- ١٥ - اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - المجلد الأول - دار صادر - بيروت - ص (١٤) .
- ١٦ - ابن كثير - تفسير القرآن - الجزء الثاني - ص (٤٤٧) .
- ١٧ - ابن كثير - تفسير القرآن - الجزء الثاني - ص (٤٤٥) .
- ١٨ - مجلة العربي - العدد (٢١٨) - كانون الثاني ١٩٧٧ - (أين سفينة نوح وما هي حكاية الطوفان) د. أمين محمود عبدالله .
- ١٩ - مجلة المختار - العدد الصادر في شباط - ١٩٧٩ - مقال « سر فلك نوح » بقلم : كريستيان هيرالد .
- ٢٠ - مجلة المواد السوفيتية - العدد (٩) - ١٩٩١ - بحث (البحث عن سفينة نوح) .
- ٢١ - مجلة المختار - العدد السابق - شباط ١٩٧٩ .
- ٢٢ - مجلة المواد السوفيتية - العدد (٩) - ١٩٩١ .
- ٢٣ - مجلة المدار السوفيتية - العدد (٩) - ١٩٩١ .

□ الأسماء الواردة في نصوص الأساطير - (الآلهة) :

- ١ - أنانا : من الآلهة السومرية .
- ٢ - أنكي : إله الماء .
- ٣ - أنو : سيد السماء مقره السماء السابعة .
- ٤ - أنليل : إله له السيادة على الأرض والجو .
- ٥ - أوتو : إله الشمس .
- ٦ - اينوجي : من الآلهة البابلية .
- ٧ - أريجال : إله العالم السفلي .
- ٨ - أنوناكي : اسم جمع للآلهة .
- ٩ - حدد : إله البرق والرعد والصواعق والأمطار .
- ١٠ - إيا : إله له السيادة على البحار والمحيطات .
- ١١ - خانيش : مساعد الاله حدد .
- ١٢ - زيوس : كبير آلهة اليونان - إله الظواهر الجوية كالبرق والرعد والمطر .
- ١٣ - شمش : إله الشمس .
- ١٤ - شوللات : مساعد الاله حدد .
- ١٥ - عشتار : إلهة نجم الزهرة .
- ١٦ - كرونوس : كبير الآلهة الرومانية - رمز الزمن عند اليونان .
- ١٧ - ننتو : الآلهة الأم .
- ١٨ - نورتا : إله الزراعة والري .
- ١٩ - نيسابا : إلهة القمح والحبوب .
- ٢٠ - ننجيكو : اسم آخر للاله (إيا) .
- ٢١ - هرمس : ابن الاله زيوس وحفيد أطلس .
- ٢٢ - بروميثوس : يعني النبي كان زيوس يغشى سطوته .

□ أبطال الطوفان :

- ١ - زيو سودرا : (بطل الطوفان السومري) - ومعنى الاسم : الذي وضع يده على العمر المديد .
- ٢ - أوت - نابشيتم : (بطل الطوفان البابلي - الكلداني) - والاسم يعني (الذي رأى الحياة) .
- ٣ - أتراحيس : (بطل الطوفان البابلي أيضاً) والاسم يعني (الواسع الحكمة) .
- ٤ - دوكاليون : (بطل الطوفان اليوناني) وهو ملك وابن بروميثوس النبي .
- ٥ - مانو : (بطل الطوفان الهندي) ابن الاله والجد الأسطوري للبشر .
- ٦ - نوح : في التوراة رجل صالح والاسم يعني (الراحة) .
- ٧ - نوح : في القرآن ، نبي ورسول إلى قومه ، أيده الله بمعجزة الطوفان .